

الإبداع والتاريخ

Creativity and history

خالد محمد

المركز الوطني للبحوث في عصور ما قبل التاريخ علم الإنسان والتاريخ الجزائر 3 شارع فرانكلين روزفلت
الجزائر khaled.mohamed@CNRPAH.org

تاريخ النشر: 2024/12/22

تاريخ القبول: 2024/11/24

تاريخ الاستلام: 2024/01/14

ملخص:

يا بوهانة 'حدثني عن محنتك ننسى محنتي'، قصة قصيدة من الشعر الملحون "الشعبي" تتناولها الأجيال شعرا ونثرا تحكي وتخلّد واقعة تاريخية في جزائر نهاية القرن 19م، وبداية القرن 20م، فالقصيدة، كانت ردا مناقضا للخطاب الاستعماري الذي انتجه ضباط الجيش الفرنسي، والكتاب المؤرخين المرافقين له.

فعبر كل من القصيدة والقصة المرتبطة بها، تبرز علاقة الإبداع بالتاريخ، عبر طبيعة العلاقة بين الحدث التاريخي وتجلياته في سياق التمثيل الإبداعي، الذي يتيح للمنهزم الدخول في علاقة مع التاريخ يقوم من خلالها بملاء الفراغات التي يحفل بها التاريخ الذي كتبه المنتصر، فمن هو بوهانة مبدع هذه القصيدة؟ وهل مكّنه الإبداع من تحقيق ما فشل في تحقيقه بالعنف؟ أي هل استطاع القلم احتواء البندقية؟ ضمن هذه الإشكالية ستتم معالجة علاقة الإبداع بالتاريخ انطلاقا من مساءلة الحدث التاريخي بالمادة الحقلية التي جُمعت من موقع الحدث التاريخي بمنطقة أولاد جلال بشمال شرق الصحراء الجزائرية.

الكلمات المفتاحية: الأبداع الفني، الإبداع الأدبي، الخارجون عن القانون، الأطلس الصحراوي.

Abstract:

The popular poem "Malhun" titled "Tell me about your suffering, it will make me forget mine," narrates and preserves the memory of a historical event in Algeria during the late 19th and early 20th centuries. This poem challenges the colonial discourse propagated by French army officers and accompanying writers and historians. It highlights the relationship between artistic creation and history, allowing the defeated to engage with history by filling

the gaps left by the victorious in their narrative. Bouhana, the author of this poem, used creativity to achieve what violence could not. The study explores the connection between artistic creation and history through poetic texts and oral accounts collected from the historical event's site in Ouled Djellal, northeastern Sahara,

Keywords: Artistic Creativity; Literary Creativity; Outlaws; Sahara Atlas

*خالد محمد

1. مقدمة:

يا بوهانة حدثني عن هانتك ندى هانتي، (يا أبو محنة حدثني عن محنتك ندى محنتي)، قصة قصيدة من الشعر الملحون "الشعبي" تتناولها الأجيال شعرا ونثرا تحكي وتخلد واقعة تاريخية في جزائر نهاية القرن 19م، وبداية القرن 20م، فالقصيدة كانت ردا مناقضا للخطاب الاستعماري الذي انتجه

في كلا المظهرين تخلد
القصيدة حدث تاريخي

ضباط الجيش الفرنسي وجحافل الكتاب والمؤرخين المرافقين لهذا الجيش رغم أنها كانت تحمل في مظهرها وجهين الأول أسطوري والثاني تاريخي، برز

ذلك في مظهرين:

الأول: اسطوري لمقاومة مغامرة غير محددة الزمان المكان

الثاني: تاريخي لمقاومة حقيقية محددة الزمان والمكان

فعبر كل من القصيدة والقصة المرتبطة بها، تبرز طبيعة العلاقة بين الحدث التاريخي وتجلياته في سياق التمثل الإبداعي، فإذا كان التاريخ يكتبه المنتصر فإن الإبداع يقوم بزعة الحقائق المزيفة التي يعمل المنتصر على تكريسها، وإعادة كتابتها من موقع مغاير فالمنهزم لا يكتب التاريخ، بل المنتصر هو الذي يقوم بكتابه على حساب المنهزم في حين يدخل المبدع في علاقة مع التاريخ، يقوم من خلالها بملء الفراغات والفجوات الكثيرة التي يحفل بها التاريخ، الذي كتبه المنهزم، وهي تمثل قراءة أخرى تبرز وجهة نظر الطرف المنهزم للحدث التاريخي، فالإبداع يسمح للمنهزم بك

تأبة تاريخه من وجهة نظره الخاصة من خلال رؤيته للحدث التاريخي الذي يمثل جزئيا تاريخه الخاص في علاقة هـ مع هـ هذا الآخر عبر التفسير الذي يقدمه المهزم في قراءته للحدث التاريخي المفصلي في علاقته مع هذا الآخر المنتصر . فمن هو بوهانة مبدع هذه القصيدة؟ وهل مكنه الإبداع من تحقيق ما فشل في تحقيقه بالعنف؟ أي هل استطاع القلم احتواء البندقية؟ وهذا ما ستجيب عنه الورقة من خلال مساءلة الواقعة التاريخية بالمادة الإبداعية المتعلقة بها شعرا ونثرا أو غيرهما في بعدها الراهن وعمقها والتاريخي، ضمن إشكالية العلاقة بين الحدث التاريخي والإبداع الفني بمختلف تجلياته.

2. جدل العلاقة بين الإبداع والتاريخ:

1.2 إشكالية العلاقة بين الإبداع والتاريخ:

تدخل إشكالية هذا البحث ضمن إشكالية أعمق هي إشكالية العلاقة بين الإبداع والتاريخ، وهي علاقة جدلية متشعبة وأوسع كون هذه العلاقة ليست حكرا على المهزم بل هي في متناول كل من المهزم والمنتصر، وهي إشكالية ليست جديدة، بل هي قديمة قدم وجود الإنسان إلى البسيطة، لكنها تعمقت و تشعبت تبعا لتعدد المقاربات المنهجية وتنوع ميادين وتخصصات البحث التاريخي، فلم يعد البحث التاريخي يقتصر على المجال السياسي، بل تنوع ليشمل فضلا عن التاريخ السياسي تخصصات أخرى تتضمن التأريخ لأوجه مختلفة ومتعددة للحياة الاجتماعية كالتاريخ الاجتماعي، التاريخ الاقتصادي، التاريخ الثقافي والتاريخ الديني... إلخ، وكان لذلك اثرا مباشرا على مصادر المادة التاريخية، التي تنوعت تبعا لميادان البحث، ومنها الإبداع، فالفن بصفته إبداع سبق علم التاريخ في تدوين التحولات الكبرى للمجتمعات البشرية ورسوم

الكهوف والصخور المعروفة بالفن الصخري شاهدة على ذلك فالفن شكل مادة أساسية في التأريخ لتطور هذه المجتمعات في عصور ما قبل التاريخ، أما في العصور التاريخية فقد كان السبق في تخليد الأحداث التاريخية للشاعر اليوناني هوميروس في القرن 9 ق م، قبل أبي التاريخ هيرودوت في القرن 5 ق م فعلاقة الإبداع بالحدث التاريخي بالمفهوم الكلاسيكي تعود بدايتها إلى إلياذة هوميروس أو ملحمة إليون التي خلد فيها الشاعر هوميروس كثيراً أمجاد مدينة إسبرطة في حرب طروادة، التي يجمع أغلب المؤرخين والكتاب على أنَّ أحداث ملحمة الإلياذة قد وقعت في منتصف القرن 12 ق م (عبد الوهاب يحي لطفى، 1981م ص 13-56) مروراً بسينية البحري التي وصف فيها الجدارية التي صورت فيها المعركة التي دارت في انطاكية بين الفرس والروم قبل الإسلام التي نقشَت رسوماً على جدران إيوان كسرى بالقاعة الكبرى بالقصر الأبيض الملكي بالمدائن (البحثري، 2012م ص 192) ولوحة غرينيكا التي خلد فيها الفنان بيكاسو الدمار الذي ألحقه قصف الطيران الألماني في 937م، بقرية غرينيكا الباسكية في الحرب الأهلية الإسبانية، وانتهاءً بقصيدة مديح الظل العالي لمحمود درويش التي وصف فيها ملحمة حصار بيروت في 1982م، (محمود درويش، 1983م) دون نسيان ذلك الديوان الشعري الضخم حول الثورة الجزائرية سواء في شكله الكلاسيكي الفصيح الذي ساهم فيه عشـرات الشعراء من غير الجزائريين خاصة من منطقة المشرق العربي والخليج العربي ، وقد قام المرحوم عثمان سعدي بجمع هذا الشعر في كتابين الأول بعنوان الثورة الجزائرية في الشعر العراقي ضم 225 قصيدة لـ 107 شعراء، والثاني الثورة الجزائرية في الشعر السوري ضم 99 قصيدة لـ 64 شاعر (عثمان سعدي، 1981م) (سعدي عثمان، 2005م) أو الملحنون الذي كان السبق فيه لرائد الملحن سيدي لخضر بن خلوف الذي شارك في معركة مزغران التي وقعت في أوت 1558م، (لخضر بن خلوف، نوفمبر ديسمبر 1969م، ص 65. 71) وخلدها في قصيدته مزغران، وقد أنجز كل من: المرحوم التلي بن الشيخ حول مكانة الشعر الملحون ن في تاريخ الجزائر الحديث بعنوان: دور الشعر الشعبي في الثورة 1830/1940م، (بن الشيخ التلي، 1983م

(، كما قام الأستاذ العربي دحو بتأليف كتاب في نفس الموضوع بعنوان: الشعر الشعبي في الثورة الجزائرية (العربي دحو، 1983م) ولم تتخلف السينما في تناولها للظاهرة بقيام الديوان الوطني للتجارة والصناعة السينماتوغرافية، بإنتاج فلمي: الثائرون سيناريو وإخراج توفيق فارس سنة 1969م، والانقطاع سيناريو وإخراج محمد شويخ سنة 1982م، وبتمويل أجنبي أُنتج فيلم خارجون عن القانون سيناريو وإخراج رشيد بوشارب 2010م.

1.2. الحدث التاريخي:

بعد انكسار المقاومة الشعبية، برزت ظاهرة الخارجون عن القانون التي خلّدتها هذه القصيدة التي احتفظت بها الذاكرة الجماعية، كسجل لهذه الحركة التاريخية، التي جمعت معطيات مادتها الشفهية الحقلية ميدانيا بولاية أولاد جلال شمال شرق الصحراء بالجزائر فمن هو هذا المجاهد الثائر؟ إنه أحد الخارجين عن القانون، أو "المنافقين"¹: بالدرجة المحلية" وهي التسمية الرسمية التي كانت تطلقها الإدارة الاستعمارية على الثوار المتمردين عن سلطتها بصفة فردية بعد انكسار المقاومة الشعبية الجماعية في جزائر نهاية القرن 19م، وبداية القرن 20م، التي فشلت في هزيمة الوجود الاستعماري وأكدت استحالة تحقيق النصر بمواصلة اعتماد هذا النهج النضالي، وفي ظل غياب البديل النضالي الذي ستعتمده الحركات الجماهيرية في صراعها مع النظام الاستعماري بسبب غياب التواصل المباشر بين المقاومة الشعبية وتبلور الحركة الوطنية تنظيميا، هذا الانقطاع ممثّل فترة فراغ، هذا الفراغ كان زمن لبروز فرديات متمردة "منافقة" على هامش مجتمع مهزوم لم يلد بعد قوى اجتماعية مهيكلّة قادرة على الاضطلاع بتحقيق مشروع تاريخي جديد، لم يكن التعبير السياسي والثقافي فرديا من صنع أهل الفكر في المدينة فقط بل شمل كذلك على الأقل جزئيا سكان الأرياف والبوادي، وفي ظل تضال الانتفاضات

¹ * الثَّقَق: بالتحريك من ثَقَق جمع أنفاق، حفرة في الأرض تخترق جبلا أو صخرة من جهة وتنفذ إلى جهة أخرى وتعني سكان المغاور

الشعبية التي لم تنقطع نهائيا، احتل فيها واجهة المسرح خارجون عن القانون "منافقين" منعزلون على رأس
عصابات صغيرة أمثال بوزيان القلعي وبن زلماط ...
إنه عمر بن قويدر الرحماوي من رفقة أولاد عمران عرش أولاد رحمة المتفرع عن عرش أولاد زكري المنتهي
لاتحادية قبيلة أولاد نايل من قرية لفصيعات بلدية الشعبية بأقصى شرق سلسلة جبال أولاد نايل بالأطلس
لس الصحراوي ولايئة أولاد جلال غرب الزاب، كان
من بين الأوائل المتمردين الذين تمردوا على فرنسا في القطر الجزائري، وقد كان سبب تمردة فرض التجنيد
الإجباري في الحرب الكونية الأولى التي بدأت بواذر نذر اندلاعها تلوح في أفق السياسة الدولية، وتحسبا
لذلك سنت فرنسا قانون التجنيد الإجباري في 1912م، الذي يقضي بتجنيد الجزائريين وإرسالهم لجبهة
القتال للدفاع عن فرنسا ضد الألمان فقاد تمردا رفقة مجموعة من المطلوبين للتجنيد الذين تمردوا
أفضين الانصياع لأوامر التجنيد الصادرة عن السلطات العسكرية الفرنسية سنة 1914م، واستمر تمرد
هذه المجموعة عنيفا وفعالا إلى أن سقط عمر بن قويدر في يد السلطة العسكرية الفرنسية بإلقاء
القبض عليه في كمين نصب له في أحد المعابر في جبل بوكحيل بسلسلة جبال أولاد نايل بالأطلس
الصحراوي، في 1922م، لينفذ فيه حكم الإعدام بسيدي عامر بولاية المسيلة في 1930م، (محمد العربي
حرزالله، بلا تاريخ ص 100-101) بعد قضائه 8 سنوات في السجن بالجزائر،
في حين هناك رواية أخرى تفيد بأن سلطات الاحتلال قد سجن عمار بن قويدر سنوات طويلة، ثم حول
ته إلى سجن كيان "Cayenne" بغوايانا الفرنسية ليموت بالمنفى سنة 1934م
عمر 60 سنة (العربي محمد حرزالله، بلا تاريخ ص 108) إنه فرد متمرد "منافق" كسابقه لكن
في ظروف الهيمنة الاستعمارية، يتخذ وجود مثل هؤلاء المتمردين وأعمالهم حجما جديدا في مواجهة
الدولة الاستعمارية التي يتحدونها رافضين عملياً شرعيتها،

ورافضين القبول بشريعة الأقوى التي تمثلها، وكذلك بمواجهة سكان الأرياف الذين يجيشون رمزيا أعمال فرسان القمم بغية تأكيد رفضهم المتشبث والعاجز وللتأكيد على ديمومتهم عبر تاريخ يواصل انحرافه، ر غم تفتت بنياتهم الأساسية.....إنه ليس قاطع طريق يعمل لصالحه، ولا ثوري يدين بوعي النظام الاستع ماري برمته، بل هو منتقم المجتمع الفلاحي/الرعوي، وهدفه المفضل أعداؤه المباشرون(جغلول عبدالقادر، 1984م، ص ص 176.177)، لكنهم لم يكونوا الوحيدين في تمردهم فقد كان هناك متمردين آخرين منهم من امتد بهم العمر لعدم تمكن السلطات الفرنسية من توقيفهم بإلقاء القبض عليه، مضافا إليهم من التحق بهم من الرافضين للتجنيد في الحرب العالمية الثانية، لكن اختلف مسار هؤلاء المتمردين أخذا منحى مغايرا لسابقيهم بفضل التغير الجذري في المجتمع الذي عرفه الجزائري ممّا مكّنه من تجديد أساليبه النضالية ببلورة بديله النضالي في مقارعة النظام الاستعماري الذي تجسد في تأسيس الحركة الوطنية الاستقلالية بجناحيها الاستقلالي الإصلاحي، والاستقلالي الثوري فانخرطوا في صفوف الحركة الوطنية الثورية بعد نهاية الحرب العالمية الثانية، بل ساهموا في انتشارها وتنظيمها إلى ان اندلعت ثورة اول نوفمبر 1954م، فكان من بينهم أحد أبرز قادة الثورة المرحوم كريم بلقاسم، الذي انخرط في صفوف الحركة الوطنية الاستقلالية الثورية، ومنهم من كان له شرف الشهادة فيها وهو الشهيد حسين برحاييل، (هدى مغراوي، 2019م، ص، 91-114) الذي بدأ حياته إصلاحيا ثم مناضلا في صفوف حزب الحركة الوطنية ربط فيها علاقة متينة مع رموز الحركة الوطنية بمنطقة الأوراس بفضل العلاقة الخاصة مع مصطفى بن بولعيد الذي سيصبح في تاريخ لاحق عضو مجموعة 22 التي خططت للثورة وفجرتها والقائد الأول للولاية التاريخية الأولى. بمعينة زملائه الـ 16 متمردا لينتهي بهم مسارهم النضالي بعد انخراطهم في حزب الحركة الوطنية جميعا مقاتلين في صفوف جيش التحرير الوطني مهيكلين في أحد الأفواج الأربعة التي شكلتها قيادة الولاية التاريخية الأولى التي قامت بالعملية الأولى ليلة فاتح نوفمبر 1954م. في نفس الوقت كانت هناك مجموعة أخرى من الخارجين عن القانون

تتكون من 12 فرد متمرد، تتمركز وسط سلسلة جبال الأطلس الصحراوي إلى الغرب من جبال الأوراس وبا
لتحديد في جبل بوكحيل بسلسلة جبال أولاد نايل، تمت هيكلتهم في صفوف الرعيل الأول من مجاهدي
الولاية السادسة التاريخية، حيث التقى بهم قائد الولاية الشهيد عاشور زيان وأقترح عليهم الانضمام
للمجاهدين معللاً بأن ذلك أفضل لهم طارحاً عليهم السؤال التالي: العدو الفرنسي يطاردكم،
والشعب يشتكي من الأضرار التي أصابته منكم، فما رأيكم لو البستكم تاج الجهاد؟ قبلوا جميعاً اقتراحه با
لانخراط في صفوف المجاهدين وجميعهم نال شرف الشهادة² (شهادة المجاهد المرحوم محمد علويات
بلدة سيدي خالد ولاية أولاد جلال بلا تاريخ).

2.2. المسار التراجمي للفاعل التاريخي 'البطل':

لم تكن أعمال هؤلاء المتمردين مثله هي التي تزعج سلطة الاستعمار بحد ذاتها، بقدر الحماية التي
كانوا يحضون بها من قبل المجموعات الفلاحية والبدوية التي ينتقمون لها،
والتي كانت تتيح لهم التخلص من قمع الدولة الاستعمارية، هذا التضامن الذي يثبت أن الاحتلال الذي
أنجز في الظاهر يبقى سطحي ولا بد من تكراره، (جغلول عبد القادر، 1984 م ص، 177) إلا أنه يتميز عنهم
كونه مبدعاً، مكنته ملكته الإبداعية سواء هو مبدعاً شخصياً أو بفضل مبدع آخر عبر نسبة هذه
القصة إليه، وقد احتفظت الذاكرة الجماعية بهذه القصة
التي خلدت ذكره، وكتابة تاريخه من وجهة نظره الخاصة، التي هي في المحصلة وجهة نظر المجتمع المهزوم
، هذا هو الجانب التاريخي الواقعي ، أما الجانب الخيالي الأسطوري، المترسب في المخيال الاجتماعي للمقا
ومة الشعبية الذي احتفظت به الذاكرة الجماعية كحدث واقعي تاريخي، فقد جمعت معطيات مادته ا
لشفهية بمنطقة / ولاية أولاد جلال غرب إقليم الزاب، شمال شرق صحراء الجزائر.

* - شهادة المجاهد محمد علويات بلدة سيدي خالد ولاية أولاد جلال 2

وعودة إلى السؤال من هو بوهانة مبدع هذه القصيدة؟ إنه المغامر الذي تنتهي جميع مغامراته بالكوارث التي تصيبه، والمآسي التي يتعرض لها بسبب تصرفاته الغير مدروسة، ومنها هذه المغامرة التي أدت به إلى التورط في ارتكاب جريمة قتل، أوصلته إلى السجن أين ولدت هذه القصيدة، التي تلخص معاناته بسبب المأساة التي وقع فيها نتيجة احداث متتالية مر بها تبدأ بالبحث عن عمل لتنتهي به في غياهب السجن: ففي اثناء ترحاله، للبحث عن الشغل مرّ بورشة عمل بها مجموعة من العمال، في منطقة معزولة عن العمران، فسألهم عن صاحب العمل وعما إذا كان يستطيع أن يشتغل معهم، رغم الشكوك التي راودته في العمل الذي يؤدونه بسبب غرابته، كونهم يقومون بعمل بدى له غير طبيعي، يتمثل في حفر خنادق، فتساءل عن طبيعة هذا العمل، ولحساب من يتم القيام به، والهدف منه، بسبب غرابته، فأجابوه بانهم يقومون بهذا العمل لحساب الرومي، بحفر هذه الخنادق في النهار، وفي صباح الغد عندما تأتي نجد هذه الحفر التي حفرناها بالأمس مردومة دون معرفة ما تم ردمه بداخلها، لانهم لم يشغلوا بالهم لمعرفة ذلك، حسب ما أجابه العمال عند ما سألهم عن طبيعة العمل الذي يقومون به، رغم سؤاله إياهم عدكم يا بني كلاب راه هذا الرومي الكافر ايدير هذه الحفر التي راكم تحفرو فيها قبورا يدفن فيها خاوتكم وبني عمكم؟

وبطبيعته المغامرة فقد قرر بعد أن راوده الشك، ان يعرف طبيعة هذا العمل، والهدف منه، وكانت الخطوة الأولى للوصول الى معرفة حقيقة هذا العمل هي الانخراط في العمل معهم، فسألهم عما إذا كان يستطيع العمل معهم عنده، وكان ردهم انتظر ليأتي صاحب العمل ، وأطلب منه ذلك بنفسك، وقد وافق على إلحاقه بالعمل عنده، بعد ان تقدم إليه بطلب امكانية تشغيله مع هؤلاء العمال لحسابه، وقد صدق حدسه فبعد البحث تكشف له طبيعة هذا العمل وهدفه، التي تبين له انها مقبرة تتكون من قبور جماعية، لبني قومه وبمعرفته لسر هذا العمل الذي يقومون به قام انتقاما للقتلى الذين يتم دفنهم ليلا فيها وهم من بني جلدته بقتل ابن الرومي صاحب العمل ودفنه في أحد هذه القبور الجماعية، وباكتشاف

جثة الفتى القتل بعد البحث عنه من طرف والده، وقرار العمال عن القاتل بعد التحقيق معهم، الذي هو بوهانة هذا الوافد الغريب فأودع السجن، الذي أبدعت فيه هذه القصيدة، التي هي ابنة المحنة التي تعرض والمأساة لها التي وقع فيها، والمصيبة التي أمت به، والكارثة التي لحقت به.

3. التعبير الأسطوري الإبداعي:

13 مغامرة الفاعل 'البطل' عمليا وإبداعيا:

لقد اتخذ مسار حياته في المخيال الاجتماعي بعد هذا المصير البائس من عمق تجارب شخوص حكايات الف ليلة وليلة نموذجا تم التعبير به عن مسار حياته الذي اتخذ مسارا سندباديا، حيث نستطيع بدون تحفظ أن نقول أنه سندباد البحري محلي، تسرد حكايته، قصة حياته، فلم يكتفى بالفكرة العامة لسرد قصته، بل أستهلمت كنموذج مقاطع من مسار قصة وحياة السندباد البحري فمقطع طائر الرخ العملاق أصبح في هذه القصة طائر العنقاء الأسطوري (مجهول المؤلف، 1988م ص 404.400) فإذا كان الناس يقصدون السندباد لسماع قصة حياته للتأمل وأخذ العبرة، وجوابا على تساؤلاتهم حول مصدر ثروته، وردا على هذه الشكوك المثار حولها، كان يروي قصة حياته لكل هؤلاء، ليبين لهم من خلالها ان هذه الثروة التي تكونت لديه، لم يتم جمعها بالسهولة التي يتصورها هؤلاء المتسائلون المتشككون، بل جاءت نتيجة عمل واجتهاد، تخللته معاناة قاسية ومغامرات رهيبة، تطلبتها، طبيعة مهنته وظروف عمله في التجارة، حتى صار من كبار التجار في بغداد. فإن ان حياة هذا المجاهد المتمرد الثائر اقسى منها. لأن السندباد البحري توج حياته بتكوين ثورة طائلة وفرت له بحبوحة مالية، ضمنت له رغد العيش، من مغامراته بسبب وحله وترحاله وكثرة سفره نتيجة امتنانه حرفة التجارة، فإن هذا الثائر الذي صارت تجربته في الحياة، نموذجا للتأمل والاعتبار: "يا بوهانة حدثني عن هانتك ننسى هانتني"، يا بومحنة حدثني عن محنتك ننسى محنتي، يأتي اليه الناس ليسمعوا قصة حياته، التي يروي فيها مغامراته المليئة بالمآسي، التي وقعت له والمعاناة التي مر بها، والكوارث التي امت به، باعتباره من كبار المغامرين، توج مغامراته

بمغامرة سياسية، انتهت به في غياهب السجن لكنها وضعت في صف الخارجين عن القانون ليجسد بذلك رمز التمرد والمقاومة في مجتمع مقهور ضد القمع المسلط عليه من طرف المستعمر الأجنبي، إلا أنها الوحيدة التي استحققت أن تخلّد بهذا العمل الإبداعي "القصيدة" دون غيرها من المغامرات التي خاضها لإدراك المجتمع المقهور الأهمية والخطورة التاريخية للعمل الذي قام به في مواجهة القمع الدموي المسلط على بني قومه، فخلّد المجتمع حركته هذه إبداعيا في سجل التاريخ، ومخلدا إياه في هذا السجل الذي كانت نتيجته السجن المديد إلى أن ضعف جسمه وبلى، واصبح لا يطبق أي نوع كان من الفراش، وعدم تحمله لأي نوع من القماش للباسه نتيجة ضعف بنيته الجسمية، التي صارت مثل جسم طفل صغير، فوضع له أخوته قفة مفروشة بريش النعام حتى يتحملة جسمه الطري، ويحملة اثنان منهما عندما يريد ان ينتقل من مكان إلى آخر. فضلا عن أن هذا التعبير الأسطوري عن الحدث التاريخي هو في حد ذاته تعبيرا فنيا إبداعيا، فقد عمّق ذلك باستلهم التراث الأدبي في سرد هذه المغامرة بالتعبير عنها إبداعيا بقصيدة شعرية تبرز في هذه المقطوعة الشعرية عمار قويدر المروية عنه، أو المنسوبة له.

أنا عمر وأنا أعميرة & وأنا اللي مهون عمري

قتلت اسبعطاعش قبطان & وكوماندا ذبحتوا بيدي

ساكن في جبل دوكال & ومعيشتي الفول المثلي

سالوا عن فطومة بنتي & قولوا لها عندك تبكي عني *

فهذه المقطوعة الشعرية سواء كانت لعمر بن قويدر، أو منسوبة له فهي لا تبتعد عن أجواء المتمردين في قصيدة الله يا الدنيا، بل يبدو النصان وكأنهما مأخوذ من قصيدة واحدة لراويين مختلفين وهو الراجح وأن الفرق الموجود بينهما إنما هو بسبب تدخل الراويين اللذين غيّرا في النصين، فقط هناك فرق واحد يتعلق بمصيرهما المختلف الذي يبدو فيها

*شرح الكلمات: قبطان: رتبة نقيب//كوماندا: رتبة عسكرية//دوكال: مدينة امدوكال بولاية باتنة

عمر بن قويدر متشائم حول قدره ومصيره المحتوم الذي لا نجاة له منه، ولهذا فهو يوصي ابنته بالصبر وعدم البكاء عليه، بينما على العكس منه ذلك الشاعر المجهول صاحب قصيدة "الله الله يا الدنيا ما فيك أمان" سواء كان هو مؤلفها، أو منسوبة إليه مثل المقطع الشعري المذكور سابقا متفائل بنجاته، لإيمانه بأن الله سيفرج عليه بإطلاق صراحه، ولهذا يوصي ابنته بالصبر لذلك اليوم الموعود موعد الفرج بالخروج من سجن الكفار.

2.3. القصيدة والعناصر والأفكار التي تتكون منها:

الله الله يا الدنيا ما فيك أمان & وانت على لملاح تولي
وليتي على غليته جلواج القومان & ولي الغيم طايخ عني
حسراه على لحيتي شوك الضربان & عادت محففة بالخدمي
كانت معيشتي لحم الخرفان & عادت معيشتي الفول المقلي
حسراه اعلا الزرقة شاو القومان & عادت مربوطة في جنان الرومي
صبحت في دزاير روبت لوطن & اضحيت قلبي متهني
عشيت في بلاصت العود نمشي حفيان & الخيوان ما كان من قدر يقبلني
انا اللي قتلت أوليد القبطان & انا اللي قتلتو بيدي
سلموا على ريم الدلال & سلموا على اماء والدتي
سلموا على العطرة مولات البيت & سلموا على الطاووس كبدي

قولهم راني في حبس الكفار & قلهم ايفرج ربّي*

*شرح مفردات القصيدة: تويّ: ترتدي، عليّة: الإمام سيدنا علي، الزرقة: الفرس، جلواج القومان

: قاهر الفرسان، شاو: بداية، دزاير: الجزائر، روبة لوطان: عروس المدائن

. غدر الزمان المتمثل في الدنيا التي انقلبت عليه وأعطته ظهرها، فهي بطبيعتها غير مأمونة العواقب

في تقلباتها مع الشرفاء والأسياد من حال العز والمجد إلى حال النذل والهوان.

. ضياع مجده وحياته الباذخة وتدهور مستوى معيشتة الذي تدنى الى مستوى طبقات

الفقراء التي تعيش في فقر مدقع في قاع المجتمع ، والعار الذي لحقه بحلق لحيته إمعانا في إذلاله ، بعد

أن جار عليه الزمان الذي يجسده تسلط الرومي الكافر.

. انصراف الناس عنه عندما أصبح مطاردا بعد فراره من سجن الكفار، ومنبوذا من بني قومه

وإخوانه العاجزين عن حمايته، خوفا من بطش سلطة الأعداء الغزاة التي ينتمي إليها هذا الرومي.

. سبب الوضعية التي آل إليها أمره، وهو السجن ثم التشرد بعد الفرار منه، واعترافه

بأن السبب الذي أودع بسببه السجن، هو قتل ابن الرومي الضابط صاحب العمل، الذي يساهم في إخفا

ء جريمة قتل بني قومه، بدفن ضحايا عمليات القتل التي يقوم بارتكابها جيش بلاده

. تفكر الأحباب والأهل من الأقارب، وهم بالمناسبة كلهن من الإناث، الأم والبنت والزوجة، وهن

ضعاف لاحول لهن ولا قوة في تحمل أعباء ومتطلبات الحياة، في مجتمع

مقهور من طرف العدو الغاشم، مع ما في ذلك من مغزى لقساوة ووحشية هذا الكافر المعتدي الذي لم يرحم حيوان ممثلاً في الزرقة/ الفرس الأسيرة ولا ضعيفاً ممثلاً في أفراد عائلته.

3.3. أهمية ومميزات هذه النصوص ومبدعها:

تتجلى في عدة مظاهر تكشف عنها، حيث تبرز في هذه النصوص وروح مبدعها، نفس وروح المجاهد والثائر المبدع محمد بلخير شاعر ثورة الشيخ بوعمامة بالهضاب العليا في الجنوب الوهراني غرب الجزائر ممثلة في البطولة خاصة وأنه لم يكن شاعر هذه الثورة يصور معاركها ويسجل أحداثها فقط، بل كان مشاركا فيها وناله منها من المعاناة ما نال غيره من الثوار المجاهدين فيها، بعد الهزيمة من أسر وتعذيب وتشريد وسجن، فجاءت أشعاره مشحونة بالأم الغربة ووحشة السجن، بحيث تبدو القصائد التي تتغنى بالخارجين عن القانون من حيث المضمون وكأنها إحدى قصائد الشاعر محمد بلخير انتقلت إلى المنطقة مثلما انتقلت غيرها من قصائد الشعر الملاحون// الشعبي التي ادمجت في المجموع الشعري المديحي لأخوان الطرق الصوفية وغيرها، في مختلف ربوع الوطن ولا غرابة في هذا، والسر في ذلك يكمن في أن الفضاء الذي جرت فيه الوقائع والأحداث التي نتج في ظلها ابداع هذه النصوص يتشابه إلى حد التطابق مع الفضاء الذي عاش فيه محمد بلخير؛ حيث المجال الجغرافي بالأطلس الصحراوي وشمال الصحراء الجزائرية والظرف التاريخي للمجتمع الجزائري والمناخ الثقافي والسياسي هو نفسه السائد في تلك الفترة، في نهاية القرن 19م، وبداية القرن 20م وهي الفترة التي لم يتمكن فيها المجتمع الجزائري من صد الهجمة الاستعمارية التي تعرض لها، مجتمعاً خرج منهزماً في مواجهة الغزو الاستعماري، مجتمع حُطِّمت مقدراته وفككت بنيته الاجتماعية بعد خضوعه للسيطرة الاستعمارية. "ولذلك احتل موضوع الخارجون عن القانون مكانة هامة في المدونة الشعرية كون الخارج عن القانون هو من تجرأ على النهوض وعرض نفسه للموت وقابل التحدي المفروض على الجماعة. هو الدولة المضادة، وهو معيار تصرفات وآمال الجماعة.... هذه القصائد التي تتلى في سهرات السمر

وتلقن للأطفال لها وظيفة تأمين ديمومة المجموعة في تمثيلها بالشهيد والتأكيد رغم الرضوخ اليومي بأن الحرية ممكنة تنقل هذه الرسالة بالاستعانة بالصبر المديد مقرونا برفض النسيان والحلم رغم العجز، إلى غاية انطلاق اشكال نضالية دينامية بديلة تتطور لتعم مجمل البلاد تنهي انحراف التاريخ بميلاد الحركة الوطنية ثم اندلاع حرب التحرير ببروز شخصيات أخرى بديلة على الصعيد الوطني تجسد أبطال البعث التاريخي" (جغلول عبد القادر، 1984م ص 175).

"انتهت حقبة الخارجين عن القانون، وتحطمت السلسلة بسرعة وحدهم كبار السن لا يزالون يعرفون بعض تفاصيل هذه الحكايات التي تروي بطولات ومآثر بوزيان القلعي وبن زلماط وعمار بن قويدر...إن أهمية القيام بإنجاز دراسات علمية حول وعن الخارجين عن القانون ونشرها بكل وسائل الإعلام تبقى مهمة ملحة من عدة جهات نظر:

.إن التاريخ السياسي والثقافي الوطني في جزائر نهاية القرن19م وبداية القرن 20م، لا يزال جنينيا حيث ركز اهتمامه أساسا على النخبة السياسية الثقافية المدنية، وإن كان هذا مهما فلا ينبغي بتاتا ان تهتمش كل اشكال التعبير لسائر مكونات الشعب الجزائري لا سيما سكان الأرياف والبوادي.

.رغم وجود بعض المصادر المكتوبة خاصة الأرشيفية لدراسة الخارجين عن القانون تبقى المواد الشفهية هي الأهم خاصة فيما يخص تحليل صيغ ومسارات تحويلهم إلى كائنات خرافية من طرف الثقافة الشعبية المهمة ملحة قبل أن يعقّب الموت حملتها، لأنه لم تبق إلا بعض الحلقات المشتتة من السلسلة التقليدية للتراث الشفهي.

.إن دراسة الخارجين عن القانون "فرسان القمم" والتعريف بهم لا تكمن في فائدته التاريخية رغم اهميته في ذلك فحسب، بل له وظيفة راهنة تتمثل في المشاركة في خلق مناخ ثقافي غير مبني على تدمير أو تهيمش الثقافات الشعبية المحلية، بل العمل على إدخالها في ثقافة وطنية قادرة على تحمل مسؤولية

قبول الآخر، وحقه في الاختلاف، فضلا عن المساهمة إثراء الثقافة الوطنية لما تتميز به هذه الثقافات من حيوية وثراء مستمد من تنوعها وتعدد روافده (جغلول عبد القادر، 1984م ص 176).

4. خاتمة:

ماذا أضاف الإبداع في مختلف تجلياته للتاريخ؟ بداية الإبداع يخلد ولا يؤرخ، لذلك ينبغي التفريق بين الإبداع والتاريخ، فالتاريخ أساسه الوثيقة مكتوبة كانت، أم أثرية، لهذا يجب توخي الحذر في اعتماد غيرهما من المصادر في الكتابة التاريخية مثل الإبداع بمختلف أشكاله، أو الروايات الشفهية والدينية لما فيها من الخطورة وخيمة العواقب بسبب المآسي الإنسانية المترتبة عنها، ولنا في مأساة الشعب الفلسطيني الذي شرد من وطنه بسبب رواية شفوية دينية، لكن أثر الإبداع في التاريخ وهذا هو الأهم يتمثل في إبرازه للجانب الإنساني لصناع الحدث التاريخي والمشاركين فيه، التي تبرز الضعف والتشاؤم، وحالة اليأس لدى عمر بن قويدر من المصير الذي ينتظره ولذا فهو يدعوا ابنته بـ عدم الحزن عليه، مقابل القوة والأمل والإيمان التي تبرز في حالة ذلك الثائر المجهول المتفائل بـ الفرج من الله بخروج السجن بإطلاق صراحه، ومكانتهم الاجتماعية التي تنبئ بأنهم كانوا من فرسان قوهم، يظهر ذلك بوضوح في تحصرهم على العيش الرغيد التي كانوا يعيشونه في حياتهم التي تحولت إلى جحيم بسبب الهوان الذي عرضوا أنفسهم لفتحول غذاؤهم من لحم الخراف إلى المثلي حتى لا يتحول هؤلاء إلى أصنام خرافية، بل ليخلدوا كأبطال أسطوريين.

4. قائمة المراجع:

البحثري 2012م الديون بيروت لبنانترجمة له وحققه، كرم البستاني
العربي دحو 1983م الشعر الشعبي والثورة الجزائرية، بدائرة مروانة 1955-1962م، الجزائر مجلة آمال موفم للنشر
رعاية وزارة الثقافة

محمد العربي حرزالله بلا تاريخ أولاد جلال: أصالة، حضارة وتاريخ، شمس الجزائرالزيان للنشر والتوزيع

محمد العربي حرزالله بلا تاريخ البساس البلدة والناس الجزائردار السبيل للنشر والتوزيع

بن الشيخ التلي 1983م دور الشعر الشعبي الجزائري في الثورة الجزائرية الشركة الوطنية للنشر والتوزيع
جغلول عبد القادر 1984م الاستعمار والصراعات الثقافية في الجزائر ترجمة سليم قسطون بيروت لبنان دار الحداثة
الطبعة الاولى

سعدى عثمان 2005م الثورة الجزائرية في الشعر السوري الجزائري منشورات وزارة المجاهدين
سعدى عثمان 1981م الثورة الجزائرية في الشعر العراقي بغداد المكتبة الوطنية دار الحرية للطباعة
عبد الوهاب يحيى لطفي 1981م عالم هوميروس، دورية عالم الفكر الثلاثي الرابع الكويت
لخضر بن خلوف نوفمبر ديسمبر 1969م قصيدة مزعران-مجلة آمال -عدد خاص - وازارة الأخبار الجزائر الشعر
الملحون -الشركة الوطنية الشعب صحافة
مجهول المؤلف 1988م ألف ليلة وليلية الحكاية الثانية من حكايات السندباد البحري ص 400. 404 الجزائر موفم
للنشر

محمود درويش 1983م مديح الظل العالي, مجموعة شعرية لبنان بيروت دار العودة
هدى مغراوي 2019م الخارجون عن القانون" بمنطقة الأوراس من خلال الكتابات التاريخية، وبعض الوثائق
الأرشيفية الفرنسية حسين برحاييل "1955/1918" نموذج /الجزائر قسم العلوم الإنسانية جامعة محمد
خضير، بسكرة مجلة المعارف للبحوث والدراسات التاريخية